

الوضع العام في بلدان الشرق الادنى القديم .

حدثت تغييرات جوهرية في الوضع العام لبلدان الشرق الادنى القديم في مطلع الالف الاول قبل الميلاد . وتغيرت موازين القوى التي كانت تحكم في سياسة الدول والمالك المتعارضه ومنها الدولة الآشورية . فقد كا ز منطقه الشرق الادنى القديم قبل بداية الالف الاول قبل الميلاد خاضعة تحت تأثير عدد من القوى في المنطقة تمثل بالامبراطوريه الحثية في آسيا الصغرى وشمال سوريسا والامبراطوريه المصريه في وادي النيل والسلالة الكاشيه في بلاد بابل ، وكانت جميع هذه القوى تسعى وتحاول السيطرة على الاقاليم والبلدان المجاورة ، ولاسيما بلاد سوريا وآشور ، لاهمية مواقعها التجاريه ووقوعها عند ملتقى الطرق التجاريه الرئيسيه ولاحتواها على اهم مصادر المواد الخام . وقد منع ذلك من قيام دولة قوية موحدة في بلاد سوريا كما كانت سوريا مسرحا لصراع الامبراطوريتين الحثية والمصرية . اما بلاد آشور فلم تتمكن هي الاخيرى من توسيع نفوذها . وفي اواخر الالف الثاني قبل الميلاد ، زالت تأثيرات هذه القوى العظمى واصبح بعضها لا يقوى حتى على المحافظة على حدوده ورافق ذلك نمو واتساع الدولة الآشوريه وبروزها على مسرح الاحداث السياسيه في الشرق الادنى القديم مستغلة فرصة غياب القوى العظمى التمكنته . فقد زالت الامبراطوريه الحثية وزال تأثيرها السياسي والعسكري منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد . اما الامبراطوريه المصريه ،

فكانت قد انهكتها الخلافات الداخلية والحروب الخارجية مع الدولة الحثية ، فانكمشت الى داخل حدودها غير انها ظلت تحرض الدوليات السورية وملكة يهودا واسرائيل ومدتها بالعون المادي والمعنوي ضد التفوذ الآشوري الذي كان يهدد مصالحها التجارية .

وعندما اصطدم الآشوريون بالمصريين في القرن السابع قبل الميلاد خضعت مصر للتفوذ الآشوري وفتحت ابوابها للجيش الآشوري فوقعت تحت الحكم الآشوري المباشر لفترة قصيرة .

اما بلاد بابل ، فبعد زوال السلالة الكاشية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، تعاقب على حكم البلاد فيها عدد من السلالات المحلية الضعيفة التي لم تقو على مجاهدة الخطر الآشوري فوقعت اخيرا تحت الحكم الآشوري المباشر ايضا . ان زوال هذه القوى العظمى من على مسرح الاحداث السياسية في الشرق الادنى القديم لا يعني تفرد الدولة الآشورية الفتية بالقوة والزعامة وسيطرتها المطلقة على الاحداث ، بل ظهرت قوى اخرى اكثر خطرا على الدولة الآشورية وعلى امنها وسلامتها الداخلية والخارجية .

ففي جهة الغرب ، زاد ضغط القبائل الآرامية الوافدة من سوريا والتي سبق لها وان اقلقت الحدود الآشورية الغربية واقتطعت بعض اجزائها في فترة الضعف التي انتابت الدولة الآشورية في اواخر عهدها الوسيط ، وتبلورت القبائل الآرامية منذ مطلع الالف الاول قبل الميلاد في عدد من الدوليات والمالك الصغيرة التي انتشرت في بلاد سوريا واعالي ما بين النهرين وغالبا ما كانت تشكل احلافا عسكرية قوية ضد الدولة الآشورية بالتعاون مع دولة اسرائيل ودولة يهودا التي كانت تحرض المدن والدوليات السورية دائمًا ضد الحكم الآشوري و تستلم المساعدات من مصر .

وفي الجهة الشمالية الغربية ، كانت بقايا الدولة الميتانية في ما بين النهرين ؟ والتي انكمشت لتكون دولة عرفت في المصادر الآشورية باسم «خاني كلبات » بينما

زادت ضغوط الاقوام الجبلية في الجهة الشمالية والشمالية الشرقية على بلاد آشور وهددت كيان الدولة الآشورية وكادت تقضي عليها لو لا عزم وثبات القوات الآشورية وقوتها واصرارها على البقاء . وكان من جملة المناطق المتمردة ضد التفوذ الآشوري منطقة زاموا (وادي السليمانية) وتشخان ودولة اورارطه (أرمينيا) وببلاد نايرى ومنطقة الميدين وكانت هذه الاقاليم تحين فرص ضعف الدولة الآشورية للانقضاض عليها والسيطرة على طرق المواصلات التجارية المارة بها وما كان على الآشوريين الا مجابهة هذا الخطر والتغلب في المنطقة الجبلية وبسط تفوذهם السياسي والعسكري عليها

وفي بلاد بابل ، كانت بعض القبائل الآرامية ، ومنها قبيلة كلدو وبيت - ياديني ، قد توغلت الى اقصى الجنوب واقامت لها سلالة حاكمة كانت تسعى دائماً للسيطرة على بلاد بابل والاستقلال عن التبعية الآشورية ، واضطرب الآشوريون الى التدخل الفعلي في بلاد بابل وضمان موالية السلالة الحاكمة فيها للسياسة الآشورية ، فقاموا بعدة حملات عسكرية الى المنطقة غير ان ذلك لم يجد نفعاً فوقعت بلاد بابل اخيراً تحت الحكم الآشوري المباشر

وهكذا كان على الملوك الآشوريين المتابعين في العهد الآشوري الحديث ان يعملوا على تثبيت سلطانهم وكيان دولتهم ويقوموا بحملات عسكرية متتالية على الجبهات المختلفة لمجابهة الانخطار المحدقة بهم ولبسط تفوذهם على الاقاليم المجاورة ، فكان ان حققوا الانتصار تلو الانتصار واسروا اعظم امبراطورية شهدتها العراق حتى ذلك الحين ، واعتمدوا في سبيل تحقيق ذلك على قوة وعزم وثبات الفرد الآشوري وصلابته وعلى النظم الادارية الكفؤة والدقيقة التي اتبعتها الحكومات المركزية في ادارة الاقاليم التابعة والبلدان المفتوحة وعلى قدرة وكفاءة الملوك الذين تعاقبوا على العرش الآشوري وعلى قوة الجيش الآشوري بصورة عامة وكفاءة عدده ، وحسن تنظيمه وتدريبه وقابليته للدفاع والهجوم في مختلف المناطق والبيئات التي تميزت بها الجبهات الآشورية المختلفة .

وكان من نتائج التوسيع الآشوري ان ضممت بلاد آشور أمن وسلامة طرقها التجارية فنشطت الحياة الاقتصادية وتدفقت الاموال عليها فعمت الرفاهية بعد الصائفة الاقتصادية التي انتابتها في اواخر العهد الآشوري الوسيط ، وكان من نتائج ذلك ايضاً ازدهار الفنون بصورة عامة ورغمة الملوكي في البناء والتعمير ونقل الكثير من الصناع والحرفيين من البلاد المفتوحة الى بلاد آشور ليساهموا في بناء القصور والمعابد واقامة الملاهي والتماثيل ونحت الالواح كما كان لسياسة التهجير التي اتبعتها الآشوريون اكبر الاثر في امتراج الحضارة في الشرق الادنى القديم بصورة عامة وانتقال العديد من المظاهر الحضارية من منطقة الى اخرى كما كان اتصال الآشوريين بساحل البحر المتوسط وسواحل آسيا الصغرى واحتلالهم باقواه البحر المتوسط وببحر ايجة اثر في نقل بعض المظاهر الحضارية الآشورية الى بلاد اليونان وجزر البحر المتوسط .

ونظراً لطول الفترة الزمنية التي شغلها العصر الآشوري الحديث وكثافة احداثها فقد تعارف الباحثون على تقسيم هذا العصر الى قسمين اساسيين يشمل الاول منها عهد الامبراطورية الآشورية الاولى التي بدأت من ٩١١ ق . م وحتى ٧٤٥ ق . م بينما يشمل الثاني عهد الامبراطورية الآشورية الثانية التي تمتد من عام ٧٤٥ ق . م وتنتهي بسقوط نينوى عام ٦١٢ ق . م .

الامبراطورية الآشورية الاولى

دب الانتعاش في الدولة الآشورية منذ بداية عهد ادد - ناري الثاني (٩١١ ق . م) بعد فترة من الركود والانحسار ، وبدأت آشور تستعيد مركزها السابق والمؤثر في الشرق الادنى ، وكان على ملكها الع الجديد ان يبدأ بحملاته العسكرية الى الجهات المختلفة لاعادة سيطرة آشور عليها واعشار الاقواط المحبيطة بعودة قوة آشور فقام بحملة الى بلاد بابل سالكا الطريق الشرقي وعقد معاهدة مع بلاد بابل لشئت الحلوى بين الدولتين وكان لهذه المعاهدة ، التي تعرف حالياً بالتاريخ التواصري (Synchronistic History) اهمية خاصة بالنسبة للمؤرخين المحدثين حيث انها احتوت على موجز لتاريخ المنازعات

والاصدامات بين البلدين في الفترة السابقة لابرامها . كما قام ادد - ناري بحملة اخرى الى الجهة الغربية ، حيث القبائل والدوليات الارامية ، وانتزع اعترافها بالسيادة الآشورية واتخذ مدنها حصونا عسكرية آشورية بينما قام بالقضاء على دولة «خاني - كلبات» الواقعة في اعلى ما بين النهرين وجعلها مقاطعة تحكم من قبل الدولة الآشورية بشكل مباشر .

وقضى توكلني تورتا الثاني (٨٩٠ - ٨٨٤ ق . م) عهده في تجهيز عدد من الحملات العسكرية الى الجهات المختلفة فوجه احداها الى منطقة بحيرة وان اخضم خلالها بلاد نائيرى وآخرى الى المنطقة الجبلية شرقى بلاد آشور وثالثة الى بلاد بابل حتى وصل الى دور كاريكانزو وسبار مما يشير الى ضعف السلالة البابلية المحلية وفي طريق عودته من بلاد بابل سلك الطريق المحاذى لنهر الفرات ثم الخابور ووصل حتى نصين وتوجل قليلا في آسيا الصغرى

وكان عهد آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ - ٨٥٦ ق . م) عهد توسيع في حدود الامبراطورية الآشورية وازدهار حضارى ملحوظ يدل على قوة الدولة الآشورية وثبات مركزها . وقد خلف لنا آشور - ناصر بال عددا من النصوص المسماة الملكية التي تتحدث بشيء من التفصيل عن اعماله العسكرية وال عمرانية ، وفيها كثير من المغالاة والبالغات في وصف المعارك العسكرية التي خاضتها القوات الآشورية مع الاقوام المجاورة وحققت خلالها انتصارات باهرة حتى اخذت نصوصه من قبل البعض دلالة على رغبة الملوك الآشوريين انفسهم وتلذذهم بالحرب وقد سبق واشرنا الى خطر هذا الاستنتاج .

وببدأ آشور ناصر بال حملاته العسكرية بحملة الى منطقة زاموا (وادى - السليمانية) ومنطقة تشخان التي اعلنت التمرد ضد الحكم الآشوري ، كما قام بحملة اخرى على الدوليات الارامية في الغرب وفي مقدمتها دويلة بيت - اديني واعاد خضوعها واعترافها بسلطانه . وبالنسبة لبلاد بابل فقد وجه اليها حملتين قضت على كل تردد فيها . وانهرا اتجه الى بلاد سوريا وزحف الى الساحل

السورى ذى الاممية الخاصة بالنسبة لطرق تجارة آشور وحقق الجيش الآشوري في سوريا انتصارات ساحقة وفرضت الجزرية على المدن المهمة مثل صور وصيدا وجبيل وارواد.

ولم يكن عهد آشور ناصر بالثاني عهد حروب فحسب ، بل كان مليئا بالاعمال العمرانية والادارية التي توجت الانتصارات العسكرية . ولعل اهم الاعمال العمرانية التي تمت في هذا العهد اعادة بناء مدينة كلخو (النمرود) وافتتاحها عام ٨٧٩ ق . م في احتفال رسمي كبير حضره حوالي سبعين الف شخص واقيمت خلاله الاحتفالات لمدة عشرة ايام متتالية وقد جاء وصف افتتاح المدينة ومارافق ذلك من احتفالات في احد النصوص المسماوية من عهد هذا الملك .

وكان عهد شيلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق . م) استمرا على عهد آشور ناصر بال من حيث التوسيع العسكري والازدهار الحضاري وبلغ التوسيع الى درجة ان ضمت الامبراطورية الآشورية معظم ارجاء الشرق الادنى القديم فامتدت من الخليج العربي جنوبا حتى ارمينيا شمالا ومن تخوم الاراضي الميدية شرقا وحتى ساحل البحر المتوسط غربا . بينما شملت الاعمال العمرانية مختلف العواصم الآشورية وفي مقدمتها كلخو . وضمن العمليات العسكرية التي قامت في هذا العهد حملة الى ساحل البحر المتوسط اخضعت خلالها دويلة بيت - ادينى للحكم الآشوري المباشر مما اضطر الدواليات السورية ودويلة اسرائيل الى تشكيل حلف عسكري ضد الحكم الآشوري بزعامة دويلة دمشق ، غير ان الجيش الآشوري تمكן من هزيمة هذا الحلف في معركة القرقار التي وقع خلالها الالاف من القتلى والجرحى . ومع ذلك عادت الدواليات السورية وشكلت الحلف ثانية فقام الجيش الآشوري بحملة كبرى على بلاد سوريا اخضعت خلالها دويلة كركميش وجعلتها مقاطعة آشورية ومنها بدأ يشن الهجوم على الدواليات السورية . وظلت الصدامات بين الجيش الآشوري والدواليات السورية مستمرة حتى امكن القضاء

على الحلف السورى وفرض السيطرة الآشورية على دوبلة دمشق واسرائيل وصور وعبيدا وغيرها من الدوليات المتحالفة فيما سارعت مصر بارسال الهدايا الى الملك الآشوري تحسباً واحترازاً.

وفي الجنوب قام الجيش الآشوري باخماد الثورة التي قامت في بلاد بابل ضد الملك البابلي الموالي للدولة الآشورية وقضى على تحركات القبائل الكلدانية في جنوبى البلاد كما قام الجيش الآشوري بحملة اخرى الى اقصى الشمال الغربى وسيطر على اقليم تابال (كيليكيا). وكانت اهم الحملات العسكرية الاصرى هي الحملة الموجه ضد دولة اورارطى في المنطقة الشمالية الشرقية والتي كانت تهدد مصالح الدولة الآشورية التجارية وتقلق امنها واستقرارها ، غير ان صدامات شليماننصر مع اورارطى لم تكن حاسمة.

واجتاحت بلاد آشور في اواخر عهد شليماننصر ثورة عارمة تزععها احد ابناء الملك وايدته كثير من المدن الآشورية الكبرى . فقام ولی العهد شمشي — ادد الخامس بمهمة القضاء على الثورة التي استمرت اربع سنوات ، توقي خلالها شليماننصر ، وساعده في ذلك بلاد بابل وانتهت الاقاليم البعيدة هذه الفرصة وانسلخت من الدولة الآشورية ونبذت نفوذها ققام شمشي — ادد بعدة حملات عسكرية لاعادة سيطرته على تلك الاقاليم ، ولاسيما في المنطقة الجبلية في الشمال والشمال الشرقي من بلاد آشور . وعلى الرغم من المساعدة التي قدمتها بابل الى الملك الآشوري الا ان شمشي — ادد قام بحملة عسكرية على بلاد بابل قضى خلالها على حلفها مع عيلام والقبائل الكلدانية وقدم القرابين الى الله بابل وذلك عام ٨١١ ق . م .

وعلى الرغم من محاولات شمشي — ادد لاعادة سيطرة بلاد آشور على اقاليمها واعادة امن واستقرار البلاد الداخلي الا ان الثورة التي اجتاحت البلاد في بداية عهده قد فعلت فعلها في اضعاف الجبهة الداخلية ، فكان ذلك ايداناً بانتهاء العهد الامبراطوري الزاهر . وقد خلف شمشي — ادد ابنه القاصر « ادد — نراري » الثالث

فصارت امه « سمو -- رمات » التي عرفت في المصادر الاغريقية باسم سمير اميس ، وصية على العرش الآشوري و حكمت نيابة عنه لمدة خمس سنوات ، اعقب ذلك حكم ثلاثة من الملوك الآشوريين من نفس السلالة ازداد في عهدهم ضعف الدولة الآشورية و انكماسها . ورافق ذلك تعاظم قوة دولة اورارطو بينما عاد الحلف السوري يهدد مصالح الآشوريين في بلاد سوريا وكان من نتائج ذلك ان انقطعت موارد الدولة الآشورية نتيجة فقدانها الطرق التجارية الرئيسية وحلت بالبلاد ضائقة اقتصادية و وقعت في البلاد ثورة داخلية قضت على الملك الحاكم و افراد اسرته و نصب بدلا عنه الملك تجلاتيليزر الثالث الذي عد عهده بداية لعهد الامبراطورية الآشورية الثانية .